قصة اجتماعية :

فى سبيل العيش

يصور لنا الكاتب فى هذه القصة المستقاة من قلب المجتمع صورة لرجل شريف النفس سدت أمامه أبواب الرزق الحلال وتوالت عليه المصائب والنكبات ، فاندفع مضطرا إلى طريق الشرور ، ولكن ضميره الحى ونفسه الأبية استيقظا أخيرا وبعد أن فقد كل شىء .

وسنرى عند ما نتتبع القصة مقدار العبء الثقيل الذى تحمله النفس الأبية أمام يقظة الضمير .

المحرر

أقبل الصباح فتطايرت أسراب الحمام والعصافير تحيى النهار تحية البكور وتهنئه بمولده ، وارتفعت الشمس قليلا قليلا وأرسلت من أشعتها خيوطا لينة دافئة حانية فوق الأطفال والصبيان الذين خرجوا من منازلهم مبكرين يمرحون وينفضون عن نفوسهم مخاوف الليل التى اضمحلت مع أحلامه السوداء ... فكانوا يترنمون بأغان ساذجة لطيفة تخرج من أفواههم الصغيرة كزقزقة العصافير وتغريد البلابل ، وكانت أغانيهم خير ما يمكون اهداءه إلى موكب الصبح الرائع .

كان اليوم عطلة ، فجلست فى شرفة منزلى استنشق نسيم الصباح ، وأرقب الشارع وهو يستقبل الوافدين ، ويودع الراحلين . وكان بى شغف إلى استعراض بعض صور الحياة التى تتوالى فى الطريق طبيعية بغير كلفة ولا تزويق .

ومن أول الشارع ظهر رجل طويل القامة أقرب للهيكل العظمى منه للانسان ، تلتمع عيناه ببريق غريب لا تراه إلا فى وجوه المجانين ، يرفع رأسه فى كبرياء وأنفة ، يسير فى الشارع فى خطى عسكرية منتظمة لا يشوبها الا رداؤه الوحيد الذى يستر بدنه ، والذى تعلن قذارته عن لابسه بما يلوح عليه من بقع وأوساخ... وكان يحمل فى يده صندوقا خشبيا ولفافة .

وظل ذلك المخلوق بل ذلك الهيكل العظمى يسير فى خطاه العسكرية . ظل يسير حتى حاذى منزلى فانتابته نوبة من السعال الحاد جعلته يفترش الأرض ويضع حمله الخفيف إلى جانبه .. ولما انتهت تلك النوبة هم ليقف فيستأنف السير ، ولكنه تردد وجلس ثانية جلسة مرتبة ، ثم تناول صندوقه باحترام واضعا إياه أمامه وأخذ يغطيه بورقة من احدى الجرائد القديمة ،

ويفض اللفافة ليخرج منها قطعا من الحلوى الصغيرة التى تباع للاطفال ، وكان يخرجها فى حذر خشية أن تتحطم بين أصابعه الخشنة الطويلة ، وظل يرتبها فى نظام راجيا أن تستلفت بتنسيقها أنظار المارة .

ظل مدة منهمكا فى عمله ووجهه آخذ سمة الجد شأن رجال الأعمال عندما يباشرون مشاريعهم الهامة . فلما فرغ الرجل من عمله نظر الى البضاعة نظرة أخيرة تنم عن الرضى وفرك كفيه بعد أن خالس نفسه النظر وصفق ثم جلس مستبشرا ...

حانت منه لفته الى الأطفال اللاعبين حوله وهم يضجون بالضحك البرىء ، فشاركهم ضحكهم فى تطفل وإغراء حتى يوجه نظرهم اليه ... ولكن عبثا . فقد ظل الأطفال عاكفين على لهوهم لا يحسون لهذا البائع وجودا ...

وبعد ساعة أو ما يقربها رمقه طفل ، فرآه البائع وكأنما استنجد بنظرته ، فابتسم له وأومأ إليه فأتاه الطفل مترددا ، وعندئذ انتقى له البائع قطعة كبيرة من الحلوى وظل يغريه بها حتى أخرج الطفل مليما واشتراها ...

وكأنما داعب الأمل صدر البائع فاعتدل فى جلسته وعاد اليه استبشاره وكأنما فتح السوق ولا ريب أن العملاء سيتوافدون على الأثر...

ظل الناس فى غدو ورواح ، لا يحفلون به ولا يهتمون لأمره كأنه قطعة مهملة من نفايات الحياة ...

وبعد لحظات مر به شاب متفخ الأوداج تبدو على وجهه دلائل العظمة والكبرياء ، ولما اقترب منه وقف قليلا وأخرج من جيبه علبة سجائر فخمة لم يكن بها الا سيجار واحد أخرجه ، ووضعه بين شفتيه ، ثم رمى بالعلبة الفارغة فى أنفة دون أن يلتفت ، فلطمت وجه البائع المسكين واستقرت بجانبه .

أسرع البائع وأطبق بكلتا يديه على العلبة الفارغة وأخرج مليمه الوحيد ووضعه بداخلها كما يضع التاجر غلته فى خزانته .. وجلس مستبشرا ... وانتصف النهار ... وانصرف أصحاب المحال التجارية كل الى منزله لتناول طعام الغذاء والمسكين لم يزل فى جلسته المضنية ينتظر عساه يجد فى النصف الثانى من النهار ما يعوض مرارة انتظاره الأليم ولكن هيهات .. ؟ فقد ظلت الدقائق تمر تعقبها الساعات وهو ينظر فى استجداء الى وجوه المارة متلمسا نظرة ... نظرة واحدة تشعره بأنهم يعترفون بوجوده كتاجر بعد أن يئس من وجود مشتر ، ولكن عبثا ما حاول ...

رمق الحلوى التى أمامه بنظرة مكتئبة . . فيخيل إليه أنها ليست متساوية ولذلك يعرض الجمهور عن شرائها . . فعكف عليها ينسقها من جديد ويقضم ما يراه زائدا فى قطعها ويثنى و تكثر تلك الزوائد كى يملأ بها بعض فراغ بطنه المستجيرة . . ولكنه كبت رغبته أخيرا وتطلع إلى السوق مستبشرا . .

تولى النهار . . . وغابت الشمس تماما فغاب معها أمل الرجل . . . وتحطم ما بقى من قواه . . . ولم تلبث عيناه أن غامت بعروق كثيفة من الدماء القانيـــة ودارت فى محاجرها كوحش هائج يريد أن يفترس كل ما يقربه . . . ولكن أين الضحية ! إنها الحلوى ولاشك . . وبيد مرتعشة حانقة تناولها . ثم عركها بين يديه الكبيرتين وكاد أن يلقيها لولا أن تذكر معدته الفارغة ، فالتهمها فى جنون ثم ركل الصندوق بقدمه . . وتناول المليم من عليته . واشترى به سيجارة حقيرة وضعها فى فمه فى كبرياء كما فعل صاحب علبة السجائر من قبل . . ثم مضى فى الطريق حتى ابتلعه فى أطوائه .

وتنبهت الى نفسى أخيرا من فرط الألم . . فأسرعت الى الطريق معولا على ملاحقة ذاك المسكين ، وإعطائه ما تيسر . . ولكن القدر القاسى كان قد وقف له بالمرصاد ، فقشلت كل محاولاتى فى البحث عنه . . وعدت إلى منزلى يائسا . . وهكذا انتهى اليوم . . . وانطوى قلبى على مأساة صغيرة من مآسى الحياة الكثيرة المتتابعة .

ومضى على هذا اليوم ما يقرب من شهور ثلاثة وكان الوقت صيفا شديد القيظ ، حبيس الأنفاس حينا . . . ملتهبا حينا آخر . . وعلى الرغم من حلول المساء . . . فقد أخذت وطأة الحر تزداد حتى عولت أخيرا على مغادرة المنزل والالتجاء الى إحدى محال المرطبات .

وفى الفيض الراكد من الضيق والحر والناس . . . سرت وحيدا . . اتلهى بمشاهدة كل ما يقع عليه نظرى ، ثم لا ألبث أن أبرم به . . لا أهدأ . . ولا أستقر .

وبينما أنا فى طريقى إذ وقع بصرى على بائع الحلوى جالسا فى مقدمة حانة ، نادرة الزبائن قليلة الحركة . لأن الكحول والحر خصمان لا يأتلفان ، ونقيضان لا يتفقان إلا فى الجسد القوى المحتمل ، وإلا فى الرأس الصلد العنيد . . فكان معظم من فيها جلوسا بالقرب من بابها على مقاعد رخيصة يتثاءبون ويروحون على وجوههم ، هاجعين أو كالهاجعين ، وبائع الحلوى يشاركهم تلك الجلسة وهو يقهقه فى صوت مدوٍ يلفت الأنظار .

كان يرتدى ثيابا نظيفة غالية لاتتفق فى شىء مع ذلك المنظر البائس المكتئب الذى كان يشمله حين وقعت عليه عينى للمرة الأولى . . واستجابة لحب الاستطلاع الذى ملك على عقلى وقتئذ ، عرجت على الحانة ودخلت .

رأيت المكان أشبه بقبر عتيق مهجور . على أنه كان رحيبا بعض الشيء ، متسعا لهذه الدنان التى تعج بأنواع الخمور ، ولبضعة موائد خشبية قـذرة قد جلس إلى إحداها فى ركن منعزل شابان زريا الهيئـة ، فهمت من أحدهما انهما من سائقى السيارات ، أحدهما طويل عمـلاق محتقن الوجه ، والآخر هزيل غائر العينين أصلع الرأس . وإلى المـائدة التى تلى مائدتهما بواحدة . قبـع شيخ طويل القامة ، أبيض الشعر على محياه شيء من الوقار ، يدخن غليونه الذى يحشوه من آن لآخر تبغ قوى ردىء ، ويتململ بين الحين والحين غاضبا متقززا .

ومن السقف الخفيض يتـدلى مصباح من بترول كان يريق على هؤلاء الأشباح نورا أحمر مقسما ، وينشر بينهم رائحة شديدة خانقة كان الحر الأليم يردها أنفاسا من جهنم . .

وبالجملة كانت تلك الحانة كتلك البؤر التى يؤمها المجرمون .

جلست على أحد المقاعد القريبـة من الباب ، بينما الفتيان الجالسان فى الطرف الآخر ينظران إلى نظرة متفرسـة ثم انصرفا عنى ، ورشقنى الشيخ بطرف عينه ثم إستدار بغير اهتمام . . . أما بائع الحلوى ، ذلك الذى إجتذبنى إلى ذلك المكان القريب وهاج فضولى فقد أكرم وفادتى وصاح يحدثنى وهو يشير الى الشيخ و يضحك هازئا . . مرحبا أيها الفتى تعال . . تعال . . أتدرى ماذا كنت أحدث به هذا الشيخ المأفون قبل أن تدخل . . . كنت أدعوه إلى مائدتى ليشاركنى شرابى المتواضع هـذا فلوى وجهه عنى واحتقرنى هـا هـا هـا . . واستطرد يخاطب الشيخ . . تعال تعال ياسيدى الأستاذ الرزيـن . . تعال ودع بعضا من وقارك هذا فليست الخمر للشيخ الوقور المتهجم .

ونظرت إلى الأستاذ فرأيته يشيح بوجهه فى زراية واحتقار و يستدير عاكفا على شرابه . وقال بائع الحلوى يخاطبنى بعد أن سعل مرات متواليات و يبصق أمامه — إذن فأقبل أنت يابنى وأولنى شرف قبولك دعوتى .

فقلت له خجلا متألما — كلا ياسـيدى شكرا إنى طلبت شرابا مثلجا . فاقتنع بالهجتى المؤدبة ثم عاد يحدثنى وهو يفرغ فى فمه القدح إثر القدح . وقال .

— سمعت هـذا الخمـار اللعين يسر فى أذنك شيئا . فماذا قال لك بالله ، ألنى مجنون أليس كذلك ها ها ها نعم ، نعم مجنون وانى لأفخر بجنونى هذا ، لاتجزع من الجنون يابنى انه شيء عذب وهادئ ، وانه شيء وديع ومسل جدا ، أتريد أن أقص عليك كيف جننت ، أو كيف قيل عنى إننى مجنون ... ، وعاجله السعال فصرع الكلمة فى فمه ...

وكنت أتأمله مبهورا وأنا أكاد أتمزق من الألم . فقال يفاجئني بعد أن تخلص من سعاله المخيف .

— انك تشفق على حين تراني منكبا على الخمر برغم ذلك السعال الذي يمزق أحشائي . أليس كذلك . نعم ، لا أنكر ، وليس على في هذا من بأس يابني ، فالخمر تقتل كل خوف في الانسان ، أنا فقير ، فقير حتى العدم ، أتريد أن أحدثك كيف أستطيع الحصول على ثمن الخمر ، وعلى هذه الملابس الغالية ؟ تريد أن تعرف ؟ إذن تعال واسمع قصتي . انها تكاد تقتلني غير أنها مع هذا لذيذة ممتعة .

أنا من سلالة إحدى العائلات التركية القديمة . وقد توطنت هذه المدينة منذ عشر سنوات أنا وزوجتي وأولادي ، أجيد اللغة التركية . بارع في العزف على العود . وكانت زوجتي رحمها الله جميلة فنية فقضت منذ ثلاثة أعوام وتركتني مع أولادي الستة .

ظلت أمتهن تعليم اللغة التركية والعزف على العود مدة كبيرة ، ولكنني لم ألبث أن أصبحت بغير عمل ، فقد هرب التلاميذ لعدم حاجتهم الى هذه اللغة ، وولى الآخرون بعد أن امتنعوا عن دفع الأجر الذي يدفعون به الى .

واستبدت به نوبة من ضحك هادر مرعب وسعال شديد فمال فأسند رأسه على ذراعيه الممدودتين على المنضدة وليث يسعل حتى خيل إلى أن أحشاءه ستثب من فمه . ثم استلقى وهو ينظر إلى مبتسما .

لقد بعت ساعتي ... ساعتي القديمة ، لأشتري بها خبزا لأولادي . وانتظرت . ولكن بدون جدوى فقد تحالف القدر على تحطيمي . الأولاد جياع . واليد فارغة ، أتدري ماذا صنعت بعد ذلك . لقد بعت أسناني ، أسناني الذهبية . بعتها جميعا واشتريت بها خبزا وإداما ، وتحرسن منها اشتريت بثمنها حلوى لأتجر فيها . وكان هذا سهمي الأخير في حياة الشرف .

ولا أطيل عليك القول يابني فقد وجدت نفسي منساقا بالرغم مني إلى طريق الإجرام مضحيا بشرفي في سبيل الاحتفاظ بما بقي منه لأولادي الصغار .

* * *

ولم أطق الجلوس بعد ذلك في هذا المكان بعد أن تحالفت حرارة الجو وحرارة الألم على فهممت بالهرب منه . . . ولكنه قال يستبقيني في ضراعة تمزق القلب : انتظر لا تذهب ، انتظر بربك فقصتي لم تنته بعد . . .

ولكنني امتنعت من البقاء بأقصى قواى فقام مترنحا وخرج معى الى صاحب الحانة ... ومددت يدى أدفع الحساب ... فلم يترك لى سبيلا الى ما أريد ... وظل يصيح ...

دعني أدفع ... هاك ... هاك نقودا كثيرة ... نقود الكرامة المقتولة ... والقلب المطعون وقذف الى الرجل بكل ما معه . وسحبنى من يدى وخرج .

وفى الشارع كان يميل و يترنح و يسير على غير هدى فسألته عن سكنه وفى عزمى أن أنتهى به إليه ولكنه لم يجب واستمر يهذر و يصيح و يترنح ... ثم أمكننى أن أفهم من خلال هذيره هذه الكلمات ...

منزلى ... منزلى ... لم يبق لى منزل ... ولم يبق لى أولاد ... فقد فر الجميع أمس والى حيث لا أعرف لهم مكانا ... وامتلأت عيناه دموعا ثم قال .

قد تشير على بالانتحار ... إيه ... لا ... إنه بشع مروع ... الانتحار ! وعلام أنتحر ؟ ... ها ها ها ها ...

وكنت فى منتصف الطريق ... والترام مقبل سريع من بعيد ... فاستطرت هلعا وصحت به الترام الترام تعالى بنا الى الرصيف ...

فانقاد الى على عاد ، ولما حاذتنا العجلة الرهيبة العدو ... رأيته يضحك فى خبال وحشى و ينظر اليها بعينين هائلتين متقدتين و ينزع نفسه من قبضتى بقوة مجنونة ثم يثب اليها وهو يصيح ...

أولادى ... شرف ... ومر الترام بسرعة خاطفة مروعة ... فإذا هو هشيم من لحم ممزق ودم متفجر .

سمير

طبعت هذه المجلة بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٦١
الموافق ٣٠ من نوفبر سنة ١٩٤٢ م

مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى

المطبعة الأميرية ٧٢٩٥-١٩٤٢-٢٥٠٠